إضاءة

يستكمل قتلُ الاحتلال لابنة الشاعر والأكاديمي الفلسطيني الشهيد محاولاتِ بَتْر الحكاية الفلسطينية، واثقالها بفعل إباديّ اشدّ وحشية من عُدوانا ته السابقة، ظنّا منه انّه يقدر على محوها كلّيا. عدوٌّ دُعر من قصيدة يُوصي فيها شاعر ابنته ان تروي حكايته

شيماء ورفعت العرعير فلسطين الحرّة في قصّة وقصيدة

لا بدّ أن تعيشي لتروي حكايتي

أنس الأسعد

قتَل الاحتلال الإسرائيلي الشابّة الفلسطينية شيماء رفعت العرعير، في السادس والعشرين من نيسان/ إبريل الجاري، كما قتَل والدها الشاعر والأكاديمي الغزّي (1979 - 2023)، في السابع من كانون الأول/ ديسمبر الماضي. استهدف قتْلُ شيماء أيضاً زوجها محمد عبد العزيز صيام، وطفلهما الرضيع عبد الرحمن الذي وُلد خلال العُدوان. إنْ لم يكن هذا القتلُ الإسرائيلي المُتسلسل تعريفاً للإبادة الجماعية، فما تعريفُها؟ وكيف تكون إذنْ؟ أقلّ من خمسة أشهر تفصل بين عمليّتي الإعدام هاتين، ولا شيء تغيّر في صَلَب المشهد، فالقاتل طليقٌ يُمارس كذبه ووقاحته بين شيماء ووالدها هناك فسحةُ إنسانيّة مُمتدّة تروي لنا حال غزّة، هناك حكاية فلسطينية تُكثّف فصولها عائلةٌ شهيدة. «الحمد لله بنتي الشيماء جابت 89,9»، هكذا استعاد البعضُ تغريدةً قديمة للأب، على «إكس» منذ عام 2021، يُخبر فيها الناس عن نجاح ابنته واستعدادها لدخول الجامعة، لتنهال التبريكات بعدها، والتي تُذكّر بـ«أنّ البنت سرّ أبيها»، بينما استذكر آخرون حين كانت تأتي مع والدها إلى الجامعة حيث كان يُدرّس، وهي ما تزال بعُمر الخمس سنوات. صُورٌ أخرى للعرعير الأب وهو مُحاطٌ بالأطفال، واستعادةٌ أبديّة لمقولته الشعرية التي طافت العالَم: «إذا كان لا بدّ أن أموت».

لكنّ لشيماء حضورٌ آخر في حياة والدها، يُمكن من خلاله الإطلالة على كتابة فلسطينية بكُلّ معنى الكلمة، ونعني هنا حضورها المُبهم الذي يتبدّى في افتتاحية العرعير لكتاب «غزّة تردّ بالكتابة»، الذي حرّره وجمع فيه 23 قصّة قصيرة لمجموعة كُتّاب شباب من غزّة، وصدر عام 2014. حملت افتتاحية الكتاب عنوان «غزّة تردّ بالكتابة: رواية فلسطين»، وهي العبارة التي اختارتها «مجلّة الدراسات الفلسطينية» لتكون عنواناً لعددها الصادر حديثاً (138 - ربيع 2024)، قبل قتل شيماء بأيّام. وتضمّن ترجمة للافتتاحية، أنجزها الباحث والأكاديمي عبد الرحيم الشيخ الذي يُوضّح أنّ قصيدة العرعير التي ذاع صيتُها بعد استشهاده قد كُتبت عام 2011، وأنّ المُخاطب فيها هو ابنتُه شيماء: «إذا كان لا بدّ أن أموت، فلا بدّ أن تعيشي/ لتروي حكايتي، ولتبيعي أشيائي/ ولتشتري قطعة قماش، وبعض الخيوط (ولتكن بيضاء بذيل طويل)/ كي يُبصر طفلٌ، في مكان ما في غزّة/ وهو يُحدّق في السماء، جاعلاً إياها تحْبل من نظرته/ منتظراً آباه الذي رحل فجأة - دون أن يودّع أحداً/ ولا حتى لحمه/ أو ذاته - يُبصر الطائرة الورقية/ طائرتي الورقية التي صنعتها أنت/ تطيرُ في الأعالي/ ويظنّ للحظة أن ثمة ملاكاً/ في الروضة، والذي يحمي عادةً الطيّبين في قصص أمّها، لا يُمكن أن يكون هو الله نفسه الذي خلق ماكينات القتل التي لم تجلب لنا، على امتداد أيّام وليال، إلّا الموت، والفوضى، والدمار». هكذا يقرأ الغزّي واقعه، يُفسّر العدوان بسابقه، ويُفتّش عن أصل الإبادة ومكامنها، ليقف أمام أسئلة أطفاله عاجزاً لا يُحير جواباً، يكتب الأب: «إن لم أستطع أن أجيب عن سؤالها، فقد عرفتُ شيئاً واحداً، وهو لماذا كبرت شيماء بما يكفي، في أسابيع قليلة، لتسأل مثل هذا السؤال البليغ؟».

لكنّ شيئاً لا يكسر ذلك العجز ويتجاوزه مثل رواية القصص وكتابتها، وفي تلك الفترة كان رفعت العرعير، الأكاديمي الشابّ الحاصل على الماجستير من «كلية لندن الجامعية»، يُدرّس الأدب العالمي والكتابة الإبداعية في «الجامعة الإسلامية» بغزّة. وقد كانت الأعوام الفاصلة بين عدوانَي 2008 و2014 الأكثر إنتاجية في حياته، وفيها أتيح له الاحتكاك والتعرّف إلى الطلبة الذين سيكتبون تلك المجموعة القصصية المشتركة، ومن بينهم حنان حبشي ويوسف الجمل وسميحة علوان وإلهام جلس الذين سيُترجمون تجاربهم أثناء العُدوان إلى قصص تنقل تفاصيل المذبحة المستمرة. نستذكر هؤلاء كأمثلة اليوم، وقد أضافت الإبادة الراهنة طبقة ثقيلة إلى السرد والقصص المُتداخلة عبر الأجيال والعُدوانات.

الأكيد أنّ رفعت العرعير لا يستحضر ابنته شيماء فقط في «غزّة تردّ بالكتابة»، بل يعود أيضاً إلى مرويّات أمّه التي كانت تحكيها له عن غزّة وصمود أهلها في وجه الاجتياحات المُتكرّرة لها، يكتب: «كان شعرُ رأسي يقف، ذلك بأنّ مجرّد فكرة اقتراب أُمّي إلى هذا الحدّ من الموت، فقط لكونها هناك، ما يزال يذهلني». مرويّاتٌ ظلّ يسترجعها وهو فتىً يرمي الحجارة على حواجز الاحتلال وجنوده إبّان الانتفاضة الأولى، كما ردّدها مرّات ومرّات، وهو الأكاديمي الأستاذ، على مسامع طلّابه وكذلك أبنائه: شيماء وعمر وأحمد، وأبناء أخيه، حين كانوا يلجأون معاً إلى إحدى غُرف المنزل، احتماءً من الغارات والقصف. نعم، قُبَيْل للشاعر الشهيد أن يستمع إلى حكايا أُمّه، لكنّ يد الإبادة نالت من حفيده قبل أن تسري الحكاية من فم الأُمّ شيماء إلى مسامعه، وقبل أن تصنع له يدُها طائرة ورقية، وكانَ وصيّة جدّه الشعرية تتحقّق: «إذا كان لا بدّ أن أموت، فلا بدّ أن تعيشي/ لتروي حكايتي، ولتبيعي أشيائي/ ولتشتري قطعة قماش، وبعض الخيوط (ولتكن بيضاء بذيل طويل)/ كي يُبصر طفلٌ، في مكان ما في غزّة/ وهو يُحدّق في السماء، جاعلاً إياها تحْبل من نظرته/ منتظراً آباه الذي رحل فجأة - دون أن يودّع أحداً/ ولا حتى لحمه/ أو ذاته - يُبصر الطائرة الورقية/ طائرتي الورقية التي صنعتها أنت/ تطيرُ في الأعالي/ ويظنّ للحظة أن ثمة ملاكاً/ يسترجع الحبّ/ إذا كان لا بدّ أن أموت/ فليأتِ موتي بالأمل/ وليُصبح حكاية». مرّة أخرى الإبادة أضافت طبقة ثقيلة على السرد، تُحاول من خلالها بَتر الحكاية الفلسطينية وأن تضع لها حدّاً تُمنع من تجاوزه، هذا هو مسعى الاحتلال الأوّل والأخير: إعدام الرواية استكمالاً لسرقة الأرض.

«فلسطين على مرمى قصّة»، هكذا أوجز رفعت العرعير غايته من «غزّة تردّ بالكتابة»، مُؤكّداً أنّ ما تحتاجُه فلسطين هو «أن تُحيا: فلسطين الحرّة حيث يتعايش كلّ الناس بغضّ النظر عن اللون أو الدين أو العِرق». نعم، صاحب هذه الكلمات أباد الاحتلالُ عائلته بالصواريخ «الذكيّة». يكتب: «نعلم أنّنا ننتمي إلى هُنا، إلى فلسطين، ونكتب لا لنستجدي حقوقنا وحياةً أفضل، بل لنفي بالتزاماتنا تجاه أنفسنا وتجاه الآخرين، وتجاه الأجيال المُقبلة... إنّ استعمار فلسطين جاء على شكل قصيدة وقصّة قبل أن يصير واقعاً. لذا، فلتتجسّد فلسطين الحرّة أوّلاً في شكل قصّة أو قصيدة». ولئن كان استذكار هذه الكلمات واجباً عند استشهاد صاحبها والباقين من عائلته، فهو أولى وأحقّ أن يظلّ حاضراً ما دام النضال الفلسطينيّ مستمرّاً.

من احتجاج أمام وزارة التعليم في لندن استذكر فيه الطلّاب رفعت العرعير، 22 آذار/ مارس 2024 (Getty)

> أقلّ من خمسة أشهر تفصل بين قتل الأب ومن ثَمّ ابنته
>
> نظر إلى الكتابة بوصفها التزاماً تجاه الأجيال المُقبلة

على مرمى قصّة

«فلسطين على مرمى قصّة»، هكذا أوجز رفعت العرعير غايته من «غزّة تردّ بالكتابة»، مُؤكّداً انّ ما تحتاجُه فلسطين هو «ان تُحيا: فلسطين الحرّة حيث يتعايش كلّ الناس بغضّ النظر عن اللون او الدين او العِرق». صاحب هذه الكلمات أباد الاحتلالُ عائلته بالصواريخ «الذكيّة». يكتب: «إنّ استعمار فلسطين جاء على شكل قصيدة وقصّة قبل ان يصير واقعا. لذا، فلتتجسّد فلسطين الحرّة أوّلا في شكل قصّة او قصيدة».

شعر

تسحب الأشياء إليها كما يسحب لصٌّ محفظة من جيب قميص

تعريفات سقطت من كتاب الحرب

عاشور الطويبي

الحرب
ذئاب تحوم حول حوضٍ يفيض بالقتلة والقتلى.

النضال
رأيٌ صائبٌ في وقته، الخُسران فيه فوز.

المطر
معروفٌ بخلع ملابسه في القفار.

صاحب المعالي
رَجُلٌ يُقدّمُ رِجلاً ويؤخّرُ أُخرى.

صاحب السعادة
دخْلُه باليورو ومصيره بائع سمك.

دولة الرئيس
يتركُ كلّ شيءٍ في مكانه من الحرص.

الرواية
سيلٌ عرِمٌ وبطاحٌ هادئة.

القصيدة
رغباتٌ فاجرةٌ ونوافل بالليل والنهار.

الفيلم
تركٌ ما عندك إلى ما لا عندك.

الصورة
زمنٌ يتراشق ببعضه في كلّ اتجاه.

الطائفية
لك أن تحتويها ولها أن تحتويك.

الفراغ
صرير بابٍ معلّق في الهواء.

الجناح
قدمُ طائرٍ وشهقةُ ورقة.

الحبيبة
سريرها بلاد وشعرها سماء.

الوطن
شريطُ لَمّاع يضعه الداخلون، ويرميه الخارجون.

الغول
يراه الطمّاعون وسدنة الحكّام.

الصاحب
يحفظ سرّك ولا يُثقلك بأسراره.

الدفّ
صاحب أهواء، شاعريّ المزاج.

الجمال
لست في حاجة إلى يدٍ لتلمسه، ولا إلى عينٍ لتبصره.

الوردة
حسبها أنها هي.

الكستناء
طبْع لسيّده كثير الأسئلة.

الصنوبر
بالغ الذكاء ورقيق الأنفاس.

السلسبيل
لا تواعد حبيبتك عنده فهو لصّ ماهرٌ.

الصبر
عُملةٌ لتصرفها، تحتاج إلى كثير من الأختام والتواقيع.

الشجرة
رائحة خشب في كانون تتركه العائلة خارج البيت آخر الليل.

النهر
قد يكون نهراً في كتاب الجغرافيا، أو أسماء منقوشة على شواهد قبور.

الوادي
تسيل فيه مياه المطر بعض وقت، ويسقّه العجاج بقية العام، بلا رحمة.

وسط المدينة
ملصقات أفلام على أعمدة ميادينها، أناسها يشربون القهوة واقفين، مطاعم وجبات خفيفة ترطن بلغات غريبة.

(شاعر من ليبيا)

قطّة بين الأنقاض في مدينة رفح جنوبي غزّة، 27 شباط/ فبراير 2024 (Getty)

فعاليات

ضمن لقاءات «الجامعة الشعبية»، يُقدّم الباحث الفلسطيني **خالد عودة الله** في «مركز بيت المقدس للأدب» بمدينة البيرة، عند السادسة من مساء بعد غدٍ، محاضرة بعنوان **القلق الصليبي.. في المشروع الصهيوني ما بعد السابع من أكتوبر**. تناقش المحاضرة القلاع الصليبية كمواقع متناقضة لبناء الهوية الاستعمارية في فلسطين.

يُفتتح، عند السابعة من مساء بعد غدٍ، في «مسرح اسامة المشيني» بالعاصمة الاردنية معرض **صبار: احتجاج مرئي ضد إسكات الاصوات الفلسطينية في المانيا** للمصوّرة الفلسطينية **رشا الجندي**، ويتواصل حتى التاسع والعشرين من الشهر الجاري. يضمّ المعرض صوراً بالابيض والاسود ونصوصاً مختارة توثّق قمع الشرطة الالمانية للمظاهرات المؤيّدة لحقّ الشعب الفلسطيني.

ينظّم «المركز المجتمعي» في بلدة اينيستيمون الايرلندية، عند الثالثة والنصف من ظهر الاحد المقبل، لقاءً مع المسرحي الفلسطيني **عبد الفتاح ابو سرور** تحت عنوان **المقاومة الجميلة**. يرافق اللقاء عزفٌ لكلّ من الموسيقيّين: ستيو وول، وعولي ستيرلنغ، وسارة كلانسي، وآيزلينغ لينونز، وبول دولي، وآخرين.

تقيم **فرقة الموسيقى العربية للتراث** بقيادة الموسيقي **فاروق البابلي**، عند الثامنة والنصف من مساء غدٍ الاحد، حفلاً في «معهد الموسيقى العربية» بالقاهرة. تؤدّي الفرقة مجموعة مقطوعات لملحّنين مثل: محمد عثمان، ورياض السنباطي، وزكريا احمد، ومحمود الشريف، وكمال الطويل، بالإضافة إلى الموشّحات الاندلسية.

مع غزّة

أمل السعيدي

لن أستخدم خطاب «العجز» لتسويغ السلبية

تقف هذه الزاوية مع مبدع عربي في أيام العدوان على غزّة وكيف أثّر على إنتاجه وحياته اليومية، وبعض ما يودّ مشاركته مع القرّاء

مسقط ـ العربي الجديد

■ ما الهاجس الذي يشغلكِ هذه الأيام في ظل ما يجري من عدوانٍ إبادةٍ على غزّة؟

لا أستطيع حتى تقديم فكرة واضحة عمّا يُشكّل هاجسا بالنسبة إليّ. هنالك الكثير من الأفكار التي تقذف بنفسها في رأسي، الخلاص الجماعي إحداها، إعادة التفكير في دراسات ما بعد الاستعمار، التفكير في مسألة مركزية نظرية المعرفة الأوروبية كواقع مُعاش، لا كأفكار مجرّدة سبق أن ناقشناها في أوقات الرخاء الثقافي كما يروق لي تسميتها الآن. أريد مراجعة كلّ شيء، كما لو أنّ العالم بدا بالنسبة إليّ في تشرين الأوّل/ أكتوبر الماضي. يبدو أنّني كنتُ مغيّبة أو ساذجة. لا أدري كيف يمكن أن أكون أيّ شيء آخر وأنا أرى ما يحدث الآن، علماً أنّني لطالما كنتُ مشتبكة مع ما يحدث في فلسطين عموماً، وفي غزّة بشكل خاصّ.

■ كيف أثّر العدوان على حياتك اليومية والإبداعية؟

في الأيام الأولى توقّفت عن الكلام. لم أكن أفعل شيئاً سوى مشاهدة التلفزيون، والبكاء بانفعال حادّ. مع مرور الوقت أعدتُ ترتيب مكتبتي، بدأتُ أعود إلى القراءة فور أن تعثّرت بكتاب ممدوح عدوان «دفاعاً عن الجنون»، وبه نصوص تتعلّق بفلسطين. أحزنني أنّ الأمر لم يتغيّر قطّ منذ تأليف هذا الكتاب، بل إنّ سوء الوضع يتفاقم كلّ يوم. أمّا بالنسبة إلى حياتي الإبداعية، فلقد توقّفتُ كثيراً عند مسألة الكتابة في وقت الكارثة، وما زلتُ عالقة هناك. لا أستطيع التفكير بشيء آخر غير الموت المشاعي وشعوري بالمساهمة فيه بطريقة ما.

■ إلى أي درجة تشعرين أن العمل الإبداعي ممكنٌ وفعّال في مواجهة حرب الإبادة التي يقوم بها النظام الصهيوني في فلسطين اليوم؟

بصراحة أنا مترددة جدّاً أمام هذا السؤال، من ناحية أشعر أنّ إجابتي الأولى يسمها شيء من الخجل والخزي أن أقول مثلاً إنّ الكتابة فعل صمود، ثم إنّها طريقتنا في الحديث عمّا يجري هناك، ألّا ندعه يختفي. أعني أنّ هناك واجباً علينا تجاه الضحايا، أن تبقى قصّتهم، وأن يعرف التاريخ ما يجري معهم. إضافة إلى أنّ الكتابة غير المباشرة عمّا يجري قد تقوّينا على احتمال ما يحدث والصمود أمامه، إنها تمدّنا بالقدرة على ألّا نضمر، ولا يتمّ طمسنا، أن نستمر من أجل أن نستطيع تحقيق ولو بعض العدالة للخاسرين، ومن ناحية أخرى أفكّر ألّا شيء على الإطلاق قد يفيد سوى أن ننشّ حرباً مباشرة بالأدوات نفسها التي يستخدمها العدوّ بعيداً عن كيتش «الصمود بالقلم والمعرفة». أجدني أميل إلى الخيار الثاني. يا إلهي هذه إبادة لا يستطيع أيّ شيء تقديم العزاء حولها وعليها.

> أريد أن أشهد العقاب الذي يستحقّه هؤلاء القتلة

■ لو قيّض لكِ البدء من جديد، هل ستختارين المجال الإبداعي أو مجالاً آخر، كالعمل السياسي أو النضالي أو الإنساني؟

لا أجد أنّهما منفصلين. كلّ كتابة هي كتابة سياسية، حتى وإن كانت مجرّدة وتحفر في اللغة فقط، فالكاتب يعكس رؤيته للعالم من خلال موقعه التاريخي والسياسي داخله. لكنّني بلا شكّ في هذا الوقت، أفكّر في ما لو كنتُ قادرة على حمل السلاح بالمعنى المباشر لا المجازي لهذه الكلمة.

■ ما هو التغيير الذي تنتظرينه أو تريدينه في العالم؟

أريد، وبلا مواربة، أن يحظى العالَم ولو بالقليل من الجحيم الذي يعيشه الغزّي اليوم، وأن يلقى القلّة الذين يحكمونه ويستفيدون منه لأجل مصالحهم المصير نفسه الذي تعيشه كلّ أمّ مكلومة وثكلى وكلّ شاب خسر فرصته للأبد في هذا العالم. لا أستطيع التفكير بتلك الموضوعية الرخيصة حول تحقيق السلام. في ظلّ ما يحدث أريد أن أشهد العقاب والانتقام الذي يستحقّه هؤلاء السفلة.

■ شخصية إبداعية مقاومة من الماضي تودين لقاءها، وماذا ستقولين لها؟

جيمس بالدوين، سأقول له بأنّني أريد اليقظة التي يفكّر بها حول العالم الأبيض والاستعمار، وكيف نجا من هذا كلّه.

■ كلمة تقولينها للناس في غزّة؟

أنا أيضاً سببُ في موتكم اليومي. لا شك بأنّني كذلك، ولن أستخدم خطاب «العجز» لتسويغ السلبية التي أتلقّى بها أخباركم كلّ يوم.

■ كلمة تقولينها للإنسان العربي في كلّ مكان؟

يجب علينا أن نُحرّر عواصمنا العربية، هذا النضال أساسي لكي تتحرّر فلسطين.

■ حين سُئلت الطفلة الجريحة دارين البيّاع التي فقدت معظم أفراد عائلتها في العدوان، ماذا تريدين من العالم، أجابت «رسالتي للناس إذا بيحبوا دارين يكتبوا لي رسالة أو أي إشي».. ماذا تقولين لدارين ولأطفال فلسطين؟

دارين، بتذكّرك كلّ وقت.. ومش رح أنسى.

أمل السعيدي

بطاقة

كاتبة وصحافية غُمانية من مواليد 1992، درسَت الإعلام في الكويت ومسقط، وتعمل مقدّمة برامج إذاعية وتلفزيونية. نال كتابها «مدخل جانبي إلى البيت» منحة «صندوق آفاق للكتابة الإبداعية» وصدر عن «دار روايات» عام 2021.

النص الكامل
على الموقع الالكتروني